

الاتجاه التكاملي في التجربة النقدية الحديثة " شوقي ضيف نموذجاً "

د. خذري عالمة

جامعة خنشلة

تزدحم الساحة النقدية المعاصرة بمناهج متعددة، الوافدة منها والأصيلة كل منها ينطلق من خلفية معرفية وفلسفية معينة، ويحاول أن يستأثر بدراسة النص الأدبي، من زاويته وذلك بالتركيز على جانب واحد متناسيا ما للنص الأدبي من عمق وتشعبات، ومن ثم ظهر اتجاه حاول استدراك هذا النقص أو القصور من خلال طابعه الشمولي (الاتجاه التكاملي)، وللوقوف على هذه الإشكالية ستحاول المداخلة أن تتناول موضوع الاتجاه التكاملي في التجربة النقدية الحديثة من خلال كتابات الدكتور شوقي ضيف باعتباره أحد المساهمين في بلورة هذا الاتجاه وتطبيقه في مختلف أعماله. ولتجسيد هذه الإشكالية أثيرت هذه التساؤلات الجوهرية:

- ما ماهية هذا الاتجاه النقدي؟

- ما الفرق بين المنهج والاتجاه؟

- ما مرجعيات هذا الاتجاه التكاملي؟

- ما تجلياته في كتابات شوقي ضيف؟

أولاً: تشكل المفهوم:

لم نعر على تعريف للمنهج التكاملي نظمن إليه، فقد تعددت تعريفاته حسب رؤى النقاد، ومن ثم ينبغي أن نعود إلى الدراسات المعجمية لنقف على تعريف جامع يؤدي الغرض المطلوب.

1. المنهج من حيث الاشتقاق اللغوي:

هو الطريق والسبيل والوسيلة التي يتدرج بها للوصول إلى هدف معين⁽¹⁾ كما أنها ترجمت للكلمة الفرنسية ذات الأصول اليونانية Méthode، والتي تعني التتبع والتقصي.

أما إن انتقلنا إلى الناحية الإصلاحية فنجده يمثل السبيل للوصول وبلوغ الحقيق فهو "مجموعة من العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم بلوغ الحقائق المتوخاة مع إمكانية بيانها والتأكد من صحتها"⁽²⁾ كما يعني أيضا "سلسلة العمليات المنظمة التي يهتدي بها الناقد وهو يباشر وصف النصوص الأدبية وتنشيطها واستنطاقها"⁽³⁾

ويمثل الاتجاه درجة أقل من المنهج أو لا يرقى لدرجة المنهج فهو "المذهب في التعبير، هو يتميز صفات خاصة، ويتجلى فيه مظهر التطور الفكري، يكون عادة وليد ما يضطرب في عصر ما فهو ثمرة لظروف ومقتضيات خاصة"⁽⁴⁾.

فالالاتجاه يمثل حقائق مختلفة وإن كانت بسيطة في صورها لكونها تفتقر للمرجعيات أو الخلفيات الفلسفية والنقدية الواضحة المعالم.

فالمنهج له إجراءات وقواعد محددة المعالم، فهو بذلك بناء تام في حين أن الاتجاه "يجمع بين الاحتمال والكمال الذي يقتضي التفكير في البحث وتدرج به إلى طريقة نتهدي بها للوصول إلى الغاية المبتغاة، وبين الكمال الذي نعتقد فيه على

أنه المسلك المستوفي المعالم، والشامل لجميع الشروط ويؤدي مسالكة إلى غاية تستدرج البحث في مسار نمائه إلى أنجح السبل"⁽⁵⁾.

ومن ثم فكل من المنهج والاتجاه يؤلفان روح وصميم النظرية النقدية باعتبار أن المنهج يتكأ بالدرجة الأولى على مفاهيم عقلية أو منطقية فيتسم بالموضوعية التي تتوفر في مقاييسه النقدية والتي تقوم عليها النظرية النقدية وهذا ما ينطبق أيضا على الاتجاه.

ومن خلال ما تقدم من حديث فإننا نتبنى فكرة الاتجاه لا المنهج للنقد التكاملي.

التكامل: فأول ما يوحي إليه هذا المصطلح في الذهن هو تعلقه بالتكامل أو الكمال الذي يوحي إلى التره عن كل نقص، أو كما أشار إليه تراثنا الإسلامي الصوفي الذي "اعتبر مصطلح الكمال مجردا باعتباره مقاما يرتفع فوق كل المقامات ويجمعها"⁽⁶⁾.

كما يشير التكامل في الفلسفة إلى انضمام العناصر الذهنية أو العقلية بعضها إلى بعض ومن ثم إتحادها كما نجد أن سبنسر جعل هذا المصطلح يعني "الانتقال من حالة إلى حالة أعلى بين حالة غامضة ومشتتة إلى حالة واضحة ومؤتلفة"⁽⁷⁾.

2. في تشكل المفهوم:

في الحقيقة أن هذا الاتجاه لم يحظ بتعريف في واضح المعالم وإن كانت كل التعاريف الواردة بحقه تصب في مصب واحد يتعلق بكونه يتكون أو يتشكل من تلاحم وتضافر كل المناهج وتعالقها بحيث لا يقتصر هذا الاتجاه في دراسته على منهج بعينه سواء ما تعلق بمنهج الدراسة السياقية أو مناهج الدراسة النسقية النصية فهو يمثل مجموع هذه المناهج المتفرقة فيستخدمها "مجتمعة متداخلة كلما استدعى النقد ذلك وعلى هذا فهو منهج مرن لا يقف عند حدود معينة، وإنما يأخذ من كل منهج ما يراه معينا على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها"⁽⁸⁾.

وبذلك فالإتجاه التكاملي يهدف لدراسة النص الأدبي بالجمع في الدراسة بين بنيته السطحية والبنية العميقة أو يربط بين بنياته الداخلية والخارجية فهو بإزاء السعي لتخليص الدراسة النقدية من التحيز وتحريرها من التوقع في شكل منهجي واحد نظرا لطبيعة النص الأدبي الذي لا يمثل فقط "إنتاجا جماليا إنه فعالية دالة وليس بينة إنه هيكلية، وليس موضوعا، ولكنه عمل ولعب، وليس مجموعة من الرموز المعلقة التي وهبت معنى والذي ينبغي البحث عنه للعثور عليه، إنه حجم من الآثار في تحول، إن المتتالية ليست المعنى ولكنها الدال"⁽⁹⁾.

فالنص الأدبي ظاهرة مميزة تقبع فيه وتخرقه مختلف المركبات المعرفية والأيدولوجية.

3. مسميات الاتجاه التكاملي:

اختلف وتباينت مسميات هذا الإتجاه بين النقاد وهذا إنما يوحي بتباين وجهات نظرهم ومنطلقاتهم المعرفية فهو المنهج التكاملي أو التركيبي أو المركب أو المتعدد أو منهج اللامنهج أو منهج من لا منهج له⁽¹⁰⁾ أو ما يسمى بالنقد الديمقراطي أو النقد المفتوح... الخ.

وفي اعتقادنا أن اصطلاح التكاملية كمسمى لهذا الإتجاه أمر صعب الاطمئنان إليه باعتبار هذه التسمية توهم إلى الكمال الذي ينأى ويتره عن أي نقص، وبذلك يمكننا قبول أي مسمى كتركيبي أو توفيق... الخ ماعدا هذه التسمية، فهذه المناهج من صنع البشر التي تنأى عن الكمال الذي يمثل سمة لله سبحانه وتعالى، إضافة إلى ذلك إن عدّ تكامليا أضحى انغلاقا فيؤدي إلى الاستغلاق.

وبذلك الإدعاء للوصول إلى النهاية فيتوقف الفكر ويحد عن أي تطور أو إبداع.

4. من حيث الريادة:

يبحث العديد من الدارسين إلى جعل الريادة في مقارنة النصوص بهذا الاتجاه، للسيد قطب الذي آثر هذا المنهج عن غيره من المناهج كالمناهج التاريخية والمنهج النفسي والفني فقال "يرى القارئ بادئ ذي بدء أنني آثرت المنهج الفني على المنهجين التاريخي والنفسي ولكنه حين ينتهي من قراءة الكتاب سيرى أن المنهج المختار هو المنهج المتكامل الذي ينتفع بهذه المناهج الثلاثة جميعا ولا يحصر نفسه داخل قالب جامد أو منهج واحد"⁽¹¹⁾

فبالنسبة له ليس هناك منهج واحد يدعي القدرة على الإحاطة بكل تفاصيل الظاهرة الأدبية لذا لا بد من إطلاق الحرية في الممارسة النقدية "فالمناهج إنما تصلح حينما تتخذ منارات ومعالم ولكنها تفسد وتضر حين تجعل قيودا وحدودا، فيجب أن تكون مزاجا من النظام والحرية والابتداع وهذا هو المنهج الذي ندعوا إليه في النقد والأدب والحياة"⁽¹²⁾.

فهذا الاتجاه ينظر في بنية هذا الأثر لا باعتبارها بنية مستقلة بذاتها وإنما هي بنية مرتبطة بسياقات أخرى اجتماعية، تاريخية، نفسية،...

فيستقي هذا الاتجاه قوته من ممارسة نقدية مركبة بالارتكاز على رؤية نقدية شمولية واحدة حتى يتم تجاوز مشكلة قصور المنهج النقدي الواحد في مقارنته أو تشريحه للنص الأدبي.

وقد أطلق ستانلي هايمن على هذا المستوى "مدرسة النقد المتكامل" ودعا إلى تكريس في تحليل النصوص الأدبية من خلال "كتابة الرؤية المسلحة" وقد جعله هايمن صفة للناقد أيضا، بحيث رأى أنه لا بد من أن يتوافر على صفات فذة تؤهله للحكم على العمل الأدبي، فتكون لديه كفاءة ذاتية فذة وعلم واسع كاف في كل هذه الميادين (...). وليس على ناقدنا المثالي أن يؤدي أكثر مما يؤديه الناقد العملي فحسب بل عليه أن يعرف أكثر منه وأن يتجاوزه مدى وبعدا وكيانا"⁽¹³⁾.

فهذه المثالية التي جعلها هايمن كصفة للناقد هي صفة طوباوية لا يمكن أن تحقق وجودها الفعلي إلا في مدينة أفلاطون المثالية وهذا مستحيل تحقيقه على أرض الواقع، ولكن قد استدرك هايمن ذلك وعدها شقشقة لسانية.

ويعتبر الدارسون أن السيد قطب كان متأثرا بدراسات هايمن في هذا المجال ونحن لا ننكر ذلك، لكن لا بد من أن ننوه بتأثره قبل ذلك بالدراسات التراثية التي كان لها السبق في وضع اللبنة الأولى في تشكيل هذا الاتجاه التكاملي من خلال الدعوة الشمولية في الدراسات، وكانت الثقافة في طابع شمولي وبين الجاحظ ذلك في تقريره بالأخذ من كل شيء "بطرف" أي من كل معرفة بقدر، كما نجدهم طبقوا المنهج التكاملي في دراساتهم والدكتورة هند طه حسين في كتابها النظرية النقدية عند العرب وضحت ذلك، وتجدر الإشارة إلى أن الريادة في الدعوة إلى هذا الاتجاه التكاملي نسبها البعض إلى الدكتور عبد القادر القط من بينهم أحمد كمال زكي في كتابه النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته والدكتور محمد عبد الحميد في النص الأدبي بين إشكالية الأحادية والرؤية التكاملية.

ولكن تبدوا الضبابية حول انتمائه التكاملي أصلا حيث شكك الدكتور يوسف وغليسي في ذلك حيث قال "ونفني عن القط الريادة وربما الانتماء التكاملي أصلا"⁽¹⁴⁾.

ونحن نوافق الدكتور وغليسي في تشكيكه إذ أن ما بدى من خلال حوار الذي أقيم مع الدكتور جهاد فاضل حين سأله هذا الأخير ما هو المنهج النقدي الذي تسترشدون به في أبحاثكم النقدية؟

فصرح "أنا أتبع ما يسمى بالنقد الجمالي"⁽¹⁵⁾ وهذا يوحي بالتشكيك في هذه الريادة وربما الانتماء التكاملي أصلا.

5. المتبنون لهذا الاتجاه التكاملي:

وقد احتفى بهذا الاتجاه مجموعة كبيرة من نقادنا وطبقوه في أعمالهم نذكر من بينهم الدكتور شكري فيصل الذي ختم كتابه باقتراح منهج جديد أو منهج متكامل يتلاءم مع تقدم الدراسة الأدبية ومع ما تقتضيه طبيعة الأدب العربي هذا الاتجاه الذي يمثل عنده أنجح الوسائل وقد عرفه بأنه "وحدة في الهدف وكثرة في الوسائل"⁽¹⁶⁾.

أما الدكتور شايف عكاشة فاعتبره "مجموع هذه المناهج المتفرقة"⁽¹⁷⁾. ويصرح أحمد هيكل مباشرة في حوار مع جهاد فاضل باعتناقه هذا الاتجاه دون تردد في ذلك فيقول "منهجي في النقد أسميه ويسميه كثير وأنا منهم المنهج التكاملي على أن اغلب وأنا أقوم بالعملية النقدية منهجا يتطلبه العمل الذي أنقده"⁽¹⁸⁾ فهو لا يحرص نفسه في منهج واحد رافضا ما سواه فهو إن فعل ذلك يكون كما قال "كالقطار الذي يمضي على قضيب السكة الحديدية إذا زل هنا أو هناك انكفأ وقفل الركاب"⁽¹⁹⁾.

وإذا عرجنا إلى عبد العزيز عتيق فهو عنده "منهج مرن لا يقف عند حدود معينة وإنما يأخذ من كل المناهج ما يراه معينا على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها"⁽²⁰⁾.

واقترن مصطلح الحرية كمبدأ نحو التكاملية عند شكري عياد حيث بين أنه "ما لم تكن قراءتنا للنصوص الأدبية تجربة مع الحرية فلن نفهم شيئا من النصوص الأدبية"⁽²¹⁾. بهذا تصبح التجربة مع الحرية الشرط الأول لفهم النص الأدبي، فأصل الإبداع وكنهه مرتبط بالتححرر من قيود الواقع بالإبحار إلى آفاق الخيال وفي القراءة الأدبية لا بد من سلاح الحرية للوصول إلى روح الإبداع.

ومن تجليات الحرية عند شكري عياد محاولته الحادة للإفادة من الاتجاهات الأدبية والنقدية المتباينة على حد سواء فحقق بذلك فكرة التكامل بهدف خدمة الدراسات النقدية، كما نجد من مظهرات النظرة التكاملية عنده تتجلى في جمعه بين النظريات الغربية والنظريات العربية في سياق واحد بهدف التلليل على وحدة الفكر الإنساني وتكامله، وقد جعل هذا التكامل أيضا في سلسلة من التقابلات التي ينفي كل منها الآخر ويتكامل معه في الوقت ذاته "فالكلاسيكية تنفي الرومانسية وتتكامل معها، والواقعية تنفي الحداثة وتتكامل معها، كما أن الانطباعية تنفي العلمية وتتكامل معها"⁽²²⁾. فالأدب لا مركزي له فلا ينطلق من المركزية الغربية ولا مركزية العربية فالأدب عالمي في الجمال، ومن ثم لا بد من عدم النظر إلى الوراثة بغضب إذ لا بد من ربط الماضي بالحاضر والسابق باللاحق وهكذا فالنقد الأدبي أسرع إلى إلغاء المسافات الثقافية لأنه الجانب الأعظم، فهو تشكل معرفي خالص تجمع فيه علوم عدة فشكل معرفة متنوعة من هذا التضافر.

ثانيا: مظهرات المنهج التكاملي في كتابات شوقي ضيف:

لقد بدأت ملامح الاتجاه التكاملي تظهر على الساحة النقدية الحديثة منذ الستينيات على يد مجموعة من النقاد الذين أخذوا يكرسون مبادئه ويشيرونها في كتبهم ويمارسونها في أعمالهم الأدبية ممارسة فعلية، بدأت تتشكل وتنبور في شكل اتجاه نقدي يضم مجموعة من النقاد الذين بدأوا يملؤون الساحة النقدية، ونذكر منهم إضافة إلى الكوكبة المذكورة آنفا كل من د/ أحمد كمال زكي، حسام الخطيب، وشوقي ضيف، ويعتبر هذا الأخير من الذين سعوا إلى تكريس هذا المنهج والترويج له، والاعتراف بالانتماء لهذا الاتجاه النقدي التكاملي، ولمح إلى بعض خصوصيته حينما اتضحت له المناهج المختلفة في تفسير الشعر تحليله وتقويمه وبين أن "من واجب الناقد الحديث أن يفيد من هذه الطرق جميعا في نقده"⁽²³⁾.

وصرح الناقد عن تنبيه الاتجاه التكاملي في كتابه البحث الأدبي الذي توقف خلاله عند مرتكزات منهجية مختلفة تاريخية، اجتماعية، نفسية، جمالية، تأثرية وبعدها صرح أن اختياره وتفضيله وقع على المنهج التكاملي باعتباره "خير منهج ينبغي أن يتبع في دراسة الأدب هو المنهج التكاملي الذي يأخذ بحظ من كل هذه المناهج مفيدا منها جميعا"⁽²⁴⁾.

وشوقي ضيف بهذه النظرة ينطلق من منظور شمولي للعمل الأدبي فهو لا يرى أن النظر من زاوية واحدة كاف للإحاطة بجميع جوانب النص وإنما لا بد من تسليط الأضواء على كل زواياه. كما ينطلق من النظرة التراثية التي تقيم الكيان الأدبي تقييما كليا بعيدا عن النظرة التجزئية، وبذلك يستلهم كافة المناهج ويستخدمها مجتمعة متداخلة كلما استدعى النقد ذلك.

وهو ذو نظرة مرنة في استخدامه للمناهج النقدية يأخذ من كل منها ما يراه مناسباً وما يقتضيه النص الأدبي. والكاتب بدون شكل متأثر بمن سبقه من النقاد لا سيما أستاذه طه حسين والذين قبله، ولكن لم يكن بجدته، بل كان معتدلاً في أحكامه فقد أخذ "يعرض ويحلل ويصنف الاتجاهات في كل عصر ليميز كل مجموعة من غيرها فيعرض ذلك كله دونما إغفال للتطور والتجديد مع الإفادة من المناهج الأخرى"⁽²⁵⁾.

فهو يستثمر في كافة العلوم الاجتماعية والنفسية والإنسانية ويدعوا إلى ضرورة الإفادة منها جميعاً، وعدم الاقتصار على منهج واحد في تحليل الأعمال الفنية، فالناظر إلى منهجه يراه يقوم على جانبيين: أحدهما خارجي يتناول المجتمع والنفس، والآخر داخلي يتناول النص والعمل ويحلله.

ومثل هذه النظرة النقدية تجعل العمل الأدبي مفتوحاً يمكن تأوله وقراءته قراءة متعددة، تمكن القارئ من اكتناه سياق باطن النص وظاهره، الذي تستلطفه الذات وتستجلبه المتعة حيثما كانت لمعانقة المأمول والتوق إلى المبتغى.

وهذا ما سماه النقد المعاصر بفراغات النص المركبة لأن هذه الفراغات تترك الربط بين أبعاد النص مفتوحاً. بهذه الرؤية تدفع الناقد إلى ضرورة الإلمام بكافة جوانب العمل الأدبي حتى يتمكن من محارته واستنطاق عوالمه الداخلية والخارجية ولعل الرؤية الشمولية التي تتسم بها كتابات شوقي تبدو واضحة المعالم في كتبه، العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، التطور والتجديد في الشعر الأموي والشعر العباسي الأول، بالإضافة إلى ما كتبه بعض الدارسين حول هذا الاتجاه في كتاباته مثل: دراسات حلمي بدير حول شوقي ضيف ويوسف نوفل في الدراسات الأدبية التي نشرها في مجلة كلية التربية بدمياط.

فكل أعماله تكشف بصدق عن جذور هذا الاتجاه وتطوراته المختلفة عبر المراحل الزمنية. وهذا يبين أن شوقي ضيف لم يقف عند حدود منهج معين كالمناهج التاريخية كما يبدو ظاهراً في سلسلة الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي فالحديث، وإنما نظر إلى النص الإبداعي الأدبي بأشكاله المختلفة بوصفه كلا متكاملًا آخذاً بعين الاعتبار الجوانب التاريخية والوصفية والنفسية والفنية والجمالية، على غرار ما فصله في كتابه: الفن ومذاهبه في الشعر العربي والنثر العربي والتطور والتجديد في الشعر الأموي مستخدماً الدراسة الفنية الجمالية مستعيناً فيها بالشق التاريخي في عرضه للنماذج الشعرية والنثرية مثلما هو واضح في قوله "حاولت في هذا الكتاب أن أضع للشعر العربي مذاهب فنية تفسر تطوره في عصوره وأقاليمه المختلفة" وجعلني ذلك ألتفت إلى حقيقة مهمة، وهي أن التطور في شعرنا العربي إنما كان في الصناعة نفسها أي في الفن الخالص وما يرتبط به من مصطلحات وتقاليده، حينئذ رأيت أن أضع له مذاهب على أساس صناعته والفن فيه"⁽²⁶⁾.

هذا ما يؤكد أن شوقي ضيف لم يكن يستخدم المنهج التاريخي وحده كما يعتقد البعض بل كان يمزج بين المناهج المختلفة، ولعل ذلك ما جعله "يتخذ كلمة الصنعة التي استخدمها النقاد والقدماء للدلالة على أول مذهب يقابلنا في الشعر العربي"⁽²⁷⁾.

معنى ذلك أن الناقد يراعي الاستخدامات السابقة ويوظفها في دراسته، ويأخذها في الاعتبار دون تحيينها، بل يجعلها واحدة من العناصر التي تبدو في كتاباته.

غير أنه لا ينبغي أن نقيم في الأذهان أن الاتجاه التكاملي في كتابات شوقي ضيف قد بلغت درجة الكمال الحقيقي، لأن مثل هذه الاتجاهات تبقى عرضة للنقص والاعتوار، وهذا أيضا لا يعني من اتصاف هذا الاتجاه بالموضوعية في دراسة الأعمال الأدبية فهو يشكل حلقة من الحلقات التي تؤسس لهذا الاتجاه وتطوره وترسخه في مجال الدراسات الجادة.

ولعل كتابه البحث الأدبي الذي قدمه خصيصا للباحثين في الأدب لنموذج لهذا الاتجاه التكاملي إذ مزج فيه بين تاريخ الأدب والنقد الأدبي ومع ذلك فإن حديثه عن المناهج النقدية وطرق استفادة الناقد منها لدعم دراسته لا يقل عن حديث سابقه في تقديم التكاملية منهجا فلا بد من تضافر المناهج للنهوض بدراسة متكاملة إذ "لا يكفي منهج واحد ولا دراسة واحدة لكي ينهض بعمله على الوجه الأكمل بل لا بد أن يستعين بها جميعا حتى يمكن أن يضطلع ببحث أدبي قيم"⁽²⁸⁾.

وتبقى ثقافة الناقد المرجعية الحقيقية في تطبيق هذه التكاملية لأن الناقد الذي لا يمتلك الآليات المعرفية لحضضة النصوص ومهادنتها لا يستطيع أن يصل إلى ما يهدف ويصبوا إليه فذاتية تعكس "فكرة الفردية والأصالة والمدرسة، أو الفضيلة الأدبية وأفكار البيئة والعصر والظروف والتطور التاريخي والحاجات الاقتصادية للمجتمع والتزام الأديب، ومدى تمثله لمجتمعه ورواسب اللاشعور الفردي، واللاشعور الجمعي وعناصر الجمال الكلي للتعبير، كما تعكس انطباعات الباحث المتمتع وصلت الأديب بالتراث الفني وأيضا تعكس تحليلات لغوية ونحوية وبلاغية دقيقة"⁽²⁹⁾.

وحتى تكتمل التكاملية عنده، وتحدث المتعة الفنية واللذة النفسية يتعين أن تقوم على دعامين: التوضيح والتقويم، القائمين على التأويل واستبطان النص والوقوف على الخفي فيه.

وهذا التقويم يقوم على المقارنة والكشف عن الجوانب الدقيقة والإنزياحية البليغة في النص الأدبي.

والعائد إلى كتابه الفن ومذاهبه في الشعر العربي وفي النثر العربي نجد عدة مناهج في الدراسة، فمرة يقف عند الجوانب البلاغية والنحوية وتارة أخرى يشير إلى الجوانب النفسية للشاعر وأخرى ينحو إلى الترتيب والتصنيف تاريخيا أو زمنيا.

وإن تمعنا في قصيدة فتح عمورية لأبي تمام في كتابه الفن ومذاهبه في الشعر العربي، نجد يوظف كل هذه العوامل مجتمعة لمقاربة هذه القصيدة مستخدما المنهج الفني والتاريخي والفلسفي والجمالي فكلها واردة في تحليله فهو يمزج بين هذه الاتجاهات جميعا في محاولة لكشف تراكيبيها وأساليبيها ومبانيها ومقاصدها لإثبات أن القراءة التي تعتمد منهجا واحدا لا تعطي النص حقه المطلوب.

ويؤسس الدكتور شوقي ضيف فكرة كتابه الفن ومذاهبه في الشعر العربي على أن الشعر وإن كان في الأصل موهبة فإنها لا تلبث أن تتحول عند صاحبها إلى ممارسة ودراسة طويلة لتقاليد ومصطلحات موروثه في تاريخ الفن، مما يجعل من الشعر صناعة مثل غيرها من الصناعات التي تخضع لظروف البيئة وحاجات المجتمع وتتأثر بما تحققه من ثقافة وتحضر، ولهذا رصد في كتابه التطور والتجديد في الشعر الأموي نماذج شعرية من هذا العصر تحقق القوالب الشعرية التي تمتد بأصولها إلى الإبداعية الشعرية الجاهلية وطبيعة البيئة، إضافة إلى الطبيعة النفسية للشاعر ومزاجه الفكري والإبداعي.

ويرد قضية الصنعة والتصنيع والتصنع في كتابيه الفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربي إلى غلبة الترف على الحياة الاجتماعية وتعدّد الحضارة في القرن الثالث الهجري التي لا تأتي بجديد إلا اهتماما بالشكليات وتعقيدا في شؤون الحياة. فالناقد في مقارنته يقوم بعملية ربطها بواقعها واستخلاص شعريتها وفيتها بتطبيقه المنهج الفني، وبذلك يجمع بين مختلف المناهج حسب ما تقتضيه طبيعة النصوص الأدبية المستهدفة بالدراسة.

وهو ما جعله يعرض أمام القارئ الصورة الدقيقة للأدب العربي في مختلف أطواره ومراحله فيقول معتمدا في آن واحد المنهج التاريخي والفني وإكمالي "حاولت أن أحفظ لها بخصائصها، فلم اعتمد على حكاية إحساسي وشعوري إزاء نماذجها، وأيضا فإنني لم أعتمد في مسألة على الفروض والأوهام، وإنما اعتمدت على النصوص الحسية نفسها"⁽³⁰⁾.

فشوقي ضيف- كما سبق- يحتكم إلى النص الشعري المادي ولا يحتكم إلى صور وهمية وإلى أحكام سابقة إنما يدير عقله في النص المعروض أمامه، ثم يخضعه للبيئة التي ظهر فيها ومؤثرات وجوده وخلقه إضافة إلى الوقوف على تركيبات النص التعبيرية واللغوية، منها إلى مواطن الإبداع الفكري وإنتاج المعرفة، وبالتالي فهو يرى ضرورة الالتفات إلى الواقع وتأثيراته على النص لما لهذه التأثيرات من أثر في ترقية الذوق وإعداده للحكم البصير على النماذج الأدبية فتكون انطباعاته عنها انطباعات سليمة.

ومن ثم أقر في النهاية أن الباحث الأدبي الحديث لا بد أن يستضيء في عمله بكل المناهج والدراسات السالفة، هكذا دخل شوقي ضيف في حوار مع المناهج الأخرى مستفيدا منها قدر حاجته، من خلال تراوح مستمر بين الكل وأجزائه التي تقوم عليه وحدة العملية المنهجية للتفسير والشرح عنده، فيتضمن التفسير وصف البيئة المتأصلة في الموضوع المدروس. وتبدو تجليات وتظاهرات الاتجاه التكاملي في دراسات شوقي ضيف النقدية أنها تعتمد كبدائية على قاعدة الشراكة بين كافة المناهج النقدية، يأخذ من كل منهج ما يخدم طبيعة الموضوع محل الدراسة.

كما يعتمد قاعدة التركيب والانسجام بحيث يركب هذه المناهج تركيبا توفيقيا توليفيا فتباين مع ذلك درجة أخذه أو استعانته من كل منهج كما وكيفا غير أن الظاهرة المنهجية الغالبة على اتجاهه هي المنهج التاريخي الذي يمثل عنده منهج فوق الاختيار وهذا ما لمسناه في سلسلة تاريخ الأدب العربي من العصر الجاهلي لغاية العصر الحديث، أما باقي الكتب فيطغى عليها المنهج الفني إلى جانب المنهج التاريخي كما هو بين في كتبه التطور والتجديد في العصر الأموي والفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربي.

إلى جانب هذه المرتكزات المنهجية التكاملية في كتابات شوقي ضيف، نلاحظ انطلاقة في المقاربة من الخاص إلى العام، على مستوى النص المفرد كما لاحظنا ذلك في تحليله لقصيدة فتح عمورية في كتابه الفن ومذاهبه في الشعر العربي. أما على مستوى المؤلف (الكتاب) فيستخدم شتى المناهج النقدية في تصافر فلم تسيطر عليه رؤية نقدية واحدة وإنما يتعامل مع كل الرؤى بحسب ما تقتضيه حاجته.

أما على مستوى مجموع أعماله النقدية، فإنه أفاد من مختلف المناهج، ولم يطغ عليه منهج بذاته على طول أعماله وإنما تراوح بينها، وإن بدى المنهج التاريخي في مقدمة المناهج الأخرى في مقارنته، وهذا ما جعل بعض الدارسين يصنفونه ضمن المنهج التاريخي كالدكتور عفيف عبد الرحمن في كتابه الشعر الجاهلي حصاد قرن، غير أنه استدرك وقال "لعل تصنيفه في المنهج التاريخي لا يعطيه حقه، فقد كان يعرض ويحلل ويصنف الاتجاهات في كل عصر ليميز كل مجموعة من غيرها، يعرض ذلك كله دونما إغفال للتطور والتجديد، مع الإفادة من المناهج الأخرى"⁽³¹⁾.

وفي اعتقادنا أن توالد هذه المناهج باستمرار للإحاطة بالظاهرة الأدبية، هو أمر طبيعي، فهو كما يراها رولان بارت " كالبصلة إن نزعت عنها قشرة لاحت لك أخرى" وهذا ما ينطبق على الأدب أو الظاهرة الأدبية بصفة عامة، فكلما ظهر أو بدا منهج اعتراه النقص فظهر آخر، وهذا يعود إلى الظاهرة الأدبية الهجينة التي تتقاطع فيها مختلف المعارف وبالتالي يعيق الناقد في ضبط منهج ثابت يلم بجوانبها حتى وإن كان هذا المنهج هو المنهج التكاملي، فيبقى المنهج محدودا و الأدب لا حدود له، وبالتالي فالحدد لا يمكنه إدراك اللامحدود حسب هدقر.

قسم الهوامش

- (1) ابن منظور لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1993.
- (2) الزواوي بغورة، المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، ط1، 2001، ص110.
- (3) عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص141.
- (4) هند طه حسين، النظرية النقدية عند العرب، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، ط1، العراق، 1981، ص266.
- (5) د/ محمد عبد الحميد تقديم عثمان موافي، بين إشكالية الأحادية والرؤية التكاملية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ص102.
- (6) المرجع نفسه ص102.
- (7) المرجع نفسه، ص102.
- (8) د/ نبيل حداد ومحمود درابسة: تداخل الأنواع الأدبية (مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، 2008)، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، ص706.
- (9) د/محمد ولد بوعليية، تقديم صبري حافظ، النقد الغربي والنقد العربي، القاهرة، ط1، 2002، ص44.
- (10) د/يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص34.
- (11) سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة بيروت، دت، ص8.
- (12) المرجع نفسه، ص09.
- (13) هايمن ستانلي، النقد الأدبي ومدارسه، نقلا عن النص الأدبي بين إشكالية الأحادية والرؤية التكاملية، المرجع السابق، ص146.
- (14) د/يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، المرجع السابق، ص40.
- (15) د/جهد فاضل، أسئلة النقد، الدار العربية للكتاب، تونس ليبيا د.ت. ص201.
- (16) د/شكري فيصل: مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1978، ص223.
- (17) د/ شايف عكاشة: اتجاهات النقد المعاصر في مصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص281.
- (18) د/ جهد فاضل: أسئلة النقد، المرجع السابق، ص14.

- (19) المرجع نفسه، ص14.
- (20) يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، المرجع السابق، ص41.
- (21) د/جمال مقابلة، شكري عياد الناقد التأصيلي، عمان، الأردن، د ت ، 277.
- (22) المرجع نفسه، ص 277.
- (23) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط6، د ت ص57.
- (24) شوقي ضيف، البحث الأدبي، طبيعة مناهجه، أصوله، مصادره، دار المعارف، مصر، ط5، د ت، ص 273.
- (25) د/عفيف عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، حصاد قرن، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2007، ص 556.
- (26) د/شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، ص07.
- (27) المرجع نفسه، ص08.
- (28) شوقي ضيف، البحث الأدبي، المرجع السابق، ص139.
- (29) شوقي ضيف، البحث الأدبي، المرجع السابق ، ص143.
- (30) د/شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، ط5، د ت، ص10.
- (31) د/عفيف عبد الرحمن، الشعر الجاهلي حصاد قرن، المرجع السابق، ص556.